SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.23 NO. 2 2024
DOI: 10.51984/JOHS.V23I2.3546

مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

صورة شمال إفريقيا وأوروبا في الرحلات الحجية الفرانكوية

نورالدين أحميان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية- سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب. أستاذ بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق.

الملخص

نظمت السلطات الفرانكوية خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939)، ثلاث رحلات حجية لفائدة مغاربة المنطقة الخليفية، وتم التنسيق مع السلطات الإيطالية لنقل الحجاج الليبيين على نفس السفينة المقلة للمغاربة، وترتب عن هذه الرحلات تأليف نصين رحليين يؤرخان لهذه الرحلات، يقدمان معطيات تاريخية مهمة عن أقطار شمال إفريقيا التي توقفت بها الرحلات في طريقها إلى الديار المقدسة (ليبيا، مصر)، هذا بالإضافة إلى تقديم معطيات أخرى حول الدول الأوربية الراعية لهذه الرحلات (إسبانيا، إيطاليا).

الكلمات المفتاحية:

الفرانكوية
شمال إفريقيا
إسبانيا
ليبيا
الرحلات

The image of North Africa and Europe in the Francoist pilgrimages journeys

Noureddine Ahmiane

Faculty of Arts and Humanities-Sais, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Morocco. Professor at the Regional Academy of Education and Training for the Oriental Region.

ABSTRACT

During the Spanish Civil War (1936-1939), the Francoist authorities organized three pilgrimage trips for Moroccans from the Northern Zone (Spanish protectorate in Morocco). Coordination was established with the Italian authorities to transport Libyan pilgrims on the same ship carrying the Moroccans. These journeys resulted in the creation of two travel texts documenting the pilgrimages, providing important historical information about the North African countries the trips passed through on their way to the holy lands (Libya, Egypt). Additionally, they offer details about the European countries sponsoring these trips (Spain, Italy).

Keywords:

Francoism
North Africa
Spain
Libya
pilgrimage journeys.

المقدمة

نظمت الفرانكوية في الفترة ما بين 1936-1939 ثلاث رحلات حجية لفائدة المغاربة خلال فترة الحرب الأهلية الإسبانية، كانت الأولى سنة 1937، وتلتها رحلتان اثنتان في سنة 1938، ثم في سنة 1939، وإذا كانت الرحلة الأولى دون أحداثها رئيس الوفد الرسمي للحج أحمد الرهوني، والتي عنونها بـ "الرحلة المكية"، وهي من منشورات معهد الجنرال فرنكو للأبحاث العربية الإسبانية، سنة 1941، وهي تكاد تكون من الكتب المفقودة وتدخل في خانة النوادر.

أما الرحلة الثانية فهي "الرحلة المعينية" لمؤلفها ماء العينين بن العتيق، وحققها محمد الظريف، ونشرت من قبل مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، وطبعت بمطبعة المعارف الجديدة بالرباط سنة 1998، وحصلت في سنة 2004 على جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي المقدمة من قبل المؤسسة الثقافية الإماراتية، فصدرت طبعة جديدة للرحلة عن دار السويدي للنشر والتوزيع خلال نفس السنة، وهي تؤرخ لموسم حج سنة 1939، بينما رحلة حج موسم 1938 فللأسف لم نعثر على نص رحلي يؤرخ لها.

وعملت الرحلتان: "الرحلة المكية" و"الرحلة المعينية"، على الدعاية للحركة الفرانكوية، كونها كانت إبان الحرب الأهلية الإسبانية، والصراع الدائر بين الفرانكويين والجمهوريين حول السلطة، كما أنهما قدمتا وصفا دقيقا للمناطق التي مرت منها سواء بشمال إفريقيا أو أوروبا.

تكمن أهمية هذه المقالة البحثية في كونها تسعى إلى إبراز الصورة التي تقدمها الرحلات الحجية المغربية المنظمة من قبل السلطات الفرانكوية حول شمال افريقيا وأروبا خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية (19936-1939)، وإذا كانت السلطات الفرانكوية قد نظمت خلال هذه المرحلة ثلاثة رحلات حجية لفائدة المغاربة فإننا لا نحصل سوى على نصين رحليين فقط

*Corresponding author:
E-mail addresses: ahmiane@gmail.com
Article History : Received 20 September 2024 - Received in revised form 23 November 2024 - Accepted 05 December 2024

أرّخا لهذه الرحلات في حين لم يتم العثور على أي نص رحلي يؤرخ لرحلة 1938.

وقد تناولت الكثير من الكتابات الحديث عن الرحلات الحجية الفرانكوية من جوانب مختلفة، لكن لم يسبق العثور على دراسة تطرقت إلى حديث هذه المصنفات عن شمال افريقيا وأروبا. لذلك تم الاعتماد في هذه الدراسة على ما يقدمه النصان الرحليان لرحلة حج سنة 1937 ثم سنة 1939.

تهدف هذه المقالة إلى الوقوف عند الصورة التي تقدمها كتب الرحلات الحجية المنظمة من قبل الإدارة الاستعمارية لفائدة مغاربة المنطقة الخليفية، مع مقارنة الصورة التي تقدمها هذه الرحلات عن اوروبا مع تلك التي تقدمها عن شمال إفريقيا. فما طبيعة حضور إسبانيا في الرحلتين؟ وما صورة شمال إفريقيا فيهما؟

1- صورة شمال إفريقيا

توجّه المغاربة منذ فجر الاسلام إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وخلفوا مصنفات ضمنوها ظروف رحلاتهم، ومشاهداتهم على طول الطريق، وعُرفت هذه المصنفات بكتب الرحلات الحجية، وخلال المرحلة الاستعمارية عملت القوى الامبريالية على تنظيم رحلات حج لفائدة أهالي البلدان التي سيطرت عليها، وهكذا نظمت الحركة الفرانكوية خلال الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939) رحلات لفائدة مغاربة المغرب الخليفي، وكان مسار هذه الرحلات يمر بكل من ليبيا ومصر في شمال إفريقيا هذا بالإضافة إلى إيطاليا، فقدمت هذه الرحلات وصفا لهذه البلدان التي مرت عبرها.

أ- صورة ليبيا في الرحلات الحجية الفرانكوية

لم يكن الحجاز باعتباره مجالاً مقدساً لدى المغاربة، هو المجال الوحيد الذي حظي باهتمام الرحلات الحجية المغربية، فكان لشمال إفريقيا هي الأخرى نصيب من هذا الاهتمام وإن بدرجة أقل من الأولى. لكن ورغم ذلك، تقدم هذه المصنفات معطيات كثيرة عن هذه الأقطار، حيث حظيت شمال إفريقيا باهتمام أحمد الرهوني في الرحلة المكية، فشكلت ليبيا محطة رئيسة من محطات الرحلة، فتحدث الرهوني عن طرابلس الغرب، ويرجع السبب في ذلك إلى توقف سفينة الحج بليبيا من أجل التزود بحاجياتها بالإضافة إلى نقل حجاج القطر الليبي على نفس السفينة برفقة إخوانهم المغاربة (الرهوني، 1941، ص 60-61)، نتيجة تحالف/ تعاون الجنرال فرانكوا خلال الحرب الأهلية الإسبانية مع نظيره في إيطاليا بنبتو موسوليني.

حدد الرهوني مساحة طرابلس في مليون كيلومتر، وعدد سكانها في مليون ونصف نسمة (الرهوني، 1941، ص 57)، وذكر بأن سكان مدينة طرابلس تبدو عليهم البداوة والابتعاد عن التحضر، ويتحدثون العربية مختلطة بالأمازيغية مثل التونسيين والجزائريين والمغاربة، وبأن لا فرق بينهم إلا في بعض اللهجات (الرهوني، 1941، ص 60)، فكان هذا الآخر (الليبي) مشابها لأنا الرهوني (المغربي).

وباعتبار شخصية أحمد الرهوني والمهام الإدارية التي أسندت إليه والمناصب التي تقلدها، فقد ركز على توضيح الوضعية الإدارية لطرابلس الغرب، حيث قال "وفيها خمس متصرفيات، الأولى طرابلس ومركزها مدينة طرابلس وهي مرسى على البحر الأبيض وسكانها ثمانون ألفا وهي العاصمة، الولاية الثانية متصرفية الجبل الغزي ومركزها غدامس، الثالثة متصرفية فزان ومركزها مرزوق وفيها مدينة سبحة مختار وزولا، الرابعة متصرفية الخمس ومركزها سكنة، الخامسة متصرفية بني غازي ومركزها بني غازي على البحر الأبيض المتوسط وفيها برقة ودرنة" (الرهوني، 1941، ص 57)، ومما استحسنه بها، طرقها المعبدة، التي سهلت تنقل الحجاج برا من المغرب إلى مصر(الرهوني، 1941، ص60). هذه الصورة الايجابية التي يقدمها الرهوني عن شبكة الطرق بليبيا لا نلمسها خلال حديثه عن أقطار عربية أخرى، ويعزى ذلك إلى كون هذه الرحلة (الرحلة المكية) كانت تهدف أساسا إلى الدعاية للنظام الفرانكوي، لذلك من الطبيعي أن تقدم صورة حسنة عن ليبيا الواقعة تحت نفوذ الاستعمار الإيطالي الحليف للفرانكوية.

أما ماء العينين بن العتيق فكان أهم ما استرعى انتباهه بطرابلس هو تخصيص زوارق لنزول الحجاج من السفينة إلى مدينة طرابلس أثناء الوصول إليها، وقد كان تخصيص هذه الزوارق والمراكب للحجاج المغاربة بشكل مجاني دون دفعهم لأية أجرة (ابن العتيق، 2004، ص 115)، وهو بذلك يرسم صورة رائعة لليبيين ومعهم السلطات الإيطالية المسيطرة على ليبيا على حسن استقبالهم، وكرمهم ولباقتهم مع الحجاج المغاربة. وعن ذلك قال: "وقد رأينا في أهل طرابلس تواضعا عجيبا عموميا، وأخلاقا جميلة لطيفة، وطباعا رقيقة ظريفة، وكرما طبيعيا، وسخاء أنفس، واعتبارا لعامة الحجاج وخاصتهم"(ابن العتيق، 2004، ص 123).

غير أن أهم ما أثار إعجاب ماء العينين بن العتيق هو نساء طرابلس، "فأحسن ما فيهم [أي أهل طرابلس] أن نساءهم لا يخرجن إلى الطرقات ولا يتبرجن، وأحرى الشريفات منهن، ومن ألجأها الحال إلى الخروج، فمن قواعدهن لا تراها إلا وهي مستترة غاية"(ابن العتيق، 2004، ص123)، وبذلك يكون للتكوين الصوفي لماء العينين انعكاس على ملاحظاته ومشاهداته. أما عن وضع صحاري طرابلس يقول عنها "وأحوال صحاريهم وباديتهم في كسبها ومعاشها وأكثر أمورها قريبة من أحوال الشناقطة"(ابن العتيق، 2004، ص 123)، وبذلك يجعل الوضع الطبيعي والاقتصادي لبوادي طرابلس مشابهة لأوضاع الصحراء المغربية، قائمة على تربية الإبل والترحال، ويرجع الحديث عن وضعية صحراء ليبيا لكون ماء العينين ينحدر من الجنوب المغربي، فعمل على مقارنة أحوال أهل الصحراء مع إخوانهم في الصحراء المغربية.

ب- مصر في الرحلات الحجية الفرانكوية

رغم ضعف المعطيات التي تقدمها هاتان الرحلتان عن مصر، لكن يمكن أن نستخرج مجموعة من المعطيات فيما يخص الجانب الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وكانت بورسعيد أول محطة للحجاج بعد ليبيا، وقد حدد ماء العينين تاريخ بنائها في سنة 1277 واعتبر ميناءها من أجود الموانئ المصرية، ولها مستقبل كبير، وتوقع أن ميناءها ممكن أن يحل محل الاسكندرية باعتبار قربها من أوربا (ابن العتيق، 2004، ص 124). الجعيدي هو الآخر اعتبر بأن بور سعيد هي "أعظم مراسي القطر المصري تجارة وعمارة وفخامة بناء ورونقا"(الجعيدي، 2018، ص 92)، هذا في الوقت الذي اعتبر الصبيحي بأن أهمية هذا الميناء راجعة إلى موقعه الجغرافي المشرف على قناة السويس مما جعل السفن العابرة منها تتزود منه باحتياجاتها (الصبيحي، 2016، ص 77)، هذه القناة التي تربط بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وانتهى العمل بها في عام 1969 بعدما استمر

لحوالي 10 سنوات (ابن العتيق، 2004، ص 124).

وأهم ما استرعى انتباه الرهوني بها، هو قدوم مراكب صغيرة بالميناء إلى سفن الحجاج للمتاجرة معهم، وبيع ما هم في حاجة إليه من الخضر والفواكه وكذلك أنواع الأثواب المختلفة. كما أشار إلى استغلال هؤلاء التجار للحجاج، من خلال الأثمنة الباهظة التي يقبضونها من الحجاج (الرهوني، 1941، ص 64). كما كانت مراكب أخرى تقل بعض الصبيان العميان الذين يمتهنون التسول من الحجاج، مستغلين أصواتهم الشجية في قراءة القرآن للتأثير في نفوس الحجاج والحصول على بعض الصدقات (الرهوني، 1941، ص64).

أما القاهرة، فقد وصفها الرهوني بـ "عاصمة العلم والمدنية" (الرهوني، 1941، صص 64-65)، التي يقابلها المغرب "أرض الجهل" (الرهوني، 1941، ص 65)، وهذا ما جعل الخليفة السلطاني يعمل على نقل العلوم والمعارف من مصر إلى المنطقة الخليفية حتى ترتقي إلى مكانة مصر العلمية، فعمل على إرسال البعثات الطلابية إلى القاهرة لأخذ العلم من معاهدها (ابن العتيق، 2004، ص 124)، ولم يقتصر الإعجاب بالقاهرة على الرهوني وماء العينين بن العتيق فقط، بل نجد كثير من الرحالة المغاربة أبدوا هذا الإعجاب، فالحجوي هو الآخر في رحلته، قد جعل من القاهرة مدينة راقية في مصاف المدن الأوربية على عكس المدن المغربية الرتيبة (الحجوي، 2010، صص 48-52). وأعجب الجعيدي هو الآخر بالقاهرة وبنياتها التحتية وشبكة مواصلاتها (الطراموای)، ومكتباتها ومدارسها التي كانت قبلة للمغاربة (الجعيدي، 2018، ص 67-68)، مما جعله في الأخير يقول "وبالجملة مصر اليوم في صف الدول الراقية بنهضتها العلمية ،وحركتها التجارية والصناعية، وعاصمتها من أعظم العواصم لما احتوت عليه من الأثار والتنظيمات والحضارة التي لا توجد في عواصم الدول الكبرى" (الجعيدي، 2018، ص 69)، فكانت القاهرة في نظر الجعيدي أعظم عواصم العالم (الجعيدي، 2018، ص65).

2- صورة أوربا في الرحلات الفرانكوية

حظيت اوروبا هي الأخرى بحيز مهم في كتب الرحلات الحجية، فقدمت وصفا للدولة الأوربية التي مرت بها، فما الصورة التي تقدمها هذه الرحلات عن أوروبا؟

أ- صورة إسبانيا في الرحلات

قدم الرهوني صورة إيجابية وحسنة عن إسبانيا في "الرحلة المكية"، من خلال عدة مظاهر، حيث أضفى الرهوني صبغة القدسية على إسبانيا، حينما يجعل من مستشفياتها مكة ثانية، من خلال قوله: "سافرت لإسبانيا بقصد الطواف على المستشفيات" (الرهوني، 1941، ص 21)، فأسقط نعت الطواف الخاص بالكعبة على المستشفيات الإسبانية الفرانكوية.

وحينما رأى الرهوني إسبانيا من فوق الطائرة أعجب ببساتينها، وذكر أن "(...) تلك الغروس هي أشجار الزيتون والليمون واللشين (البرتقال) وغير ذلك من الأشجار، تظهر من علو كأنها نقلة الكرنب أو البطاطة البطاطس) أو طماطيش (الطماطم)، ونسبة غير المحروث والمغروس لا تبلغ العشر مما ذكر وإذا بسواقي ماء ذاهبة من أعالي الجبال إلى السهول مارة يمينا وشمالا لسقي الأراضي والأشجار، وإذا بالمدن والقرى تظهر كأنها النجوم ولا تتميز إلا بالتبيض بالجير أو التحمير بالمغرة والقرميد وشبه ذلك وحولها الجنانات [البساتين] والغروس" (الرهوني، 1941، ص 25)، وغير خفي أن هدف الرهوني من هذا الكلام هو إظهار حسن تنظيم المنطقة التابعة للثوار وحسن تنظيمها وازدهارها.

توجه الرهوني إلى إسبانيا عبر الطائرة، فتعجب من سرعتها فقال بأن اختراع الطائرة يعود إلى العلم وتطوره، والعلم حسب الرهوني ليس الفقه والنحو والحديث، بل هو الهندسة والكيمياء وغيرهما، هذا العلم الذي عم مختلف الأقطار، باستثناء المغاربة، لذا على المغاربة أن يتعلموا ويصنعوا مثل ما يصنعه غيرهم من الأمم، فدعا الشباب المغاربة إلى التعلم من الإسبان حتى تتكون فئة من الشباب المغاربة المتخصصين في شؤون المطارات والطائرات (الرهوني، 1941، ص 27). ولم يجعل من إسبانيا قبلة فقط لتعلم العلوم المرتبطة بالطيران فقط، بل أيضا يذكر مجموعة من الشباب المغاربة الذين يتواجدون بإسبانيا ويأخذون وينهلون من علومها، ومنها أن: "الأول يتعاطى الهندسة ومن عداه يشتغلون في المستشفيات مع أساتذتهم الأطباء ويتمهرون في علوم الطب والتشريح مما يبشر بحسن مستقبلهم ومستقبل وطنهم العزيز، وإني أتمنى على الله وعز وجل أن تمتلئ اسبانيا وغيرها ببعثات من شبابنا ليغترفوا من بحور علومها"(الرهوني، 1941، ص 29). وهكذا رغب الرهوني في جعل الدولة المستعمرة قبلة للشباب المغاربة للانتفاع بعلومها، متناسيا جرائم هذه الدولة ضد أبناء وطنه، فعوض المطالبة بمقاومتها ومقاطعتها فهو يرغب في جعلها قدوة للمغاربة.

أما مستشفيات إسبانيا، فقد قال عنها: "فرأينا من حسن تنظيمها ونقاوة فرشها ونفع أدويتها ولطافة أطبائها ونضارة أبنيتها ورياضها ولدة مطاعمها الأمر المدهش، لبن، حليب وبيض ولحم طري ودجاج كذلك"(الرهوني، 1941، ص 30)، أما الممرضات فإنهن كـ"البيض المكنون يطفن عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين"(الرهوني، 1941، ص 30)، ونلاحظ أنه يسقط أوصاف الجنة على المستشفيات الإسبانية، وجعل الممرضات الإسبانيات بمثابة حور العين، وهذا كله قصد الدعاية للنظام الفرانكوي بإسبانيا وتشجيع المغاربة للإقبال على الانخراط في التجنيد ضمن القوات الفرانكوية

يصف الرهوني كذلك كثيرا من مدن الأندلس، فاستحسن حسن انتظامها واعتناء أهلها بالزراعة والبستنة(الرهوني، 1941، ص 31- 32)، وكذلك سيادة الأمن والاطمئنان بهذه المدن(الرهوني، 1941، ص 34)، كما أشاد أثناء ذلك بكرم إسبانيا والإسبان، ويظهر ذلك من خلال الهدايا التي كانت تقدم له أو للخليفة السلطاني عبره، وكذلك إكرام الرهوني في كل محطات رحلته بالمدن الإسبانية بتوفير أحسن وألذ الأطعمة له (الرهوني، 1941، صص 33- 34).

عكس رحلة سنة 1937 التي استقبل فيها فرانكوا رئيس وفد الحجاج الفقيه أحمد الرهوني، قبل انطلاق الحجاج إلى الديار المقدسة، وكذلك بعد عودتهم دعاهم بشكل كلي وليس فقط رئيس الوفد، وهو ما جعل الرهوني يقدم صورة وافيه عن إسبانيا. فإن الرحلة المعينة، التي لم تقدم صورة واسعة عن إسبانيا، لكون صاحب الرحلة لم يستقبل من قبل الجنرال فرانكو والانتقال بين كبريات المدن الإسبانية، رغم أن مسار الرحلة تضمن المرور عبر التراب الإسباني، لكن دون أن يتجول كثيرا في إسبانيا. ورغم ذلك، كانت إسبانيا حاضرة في الرحلة من خلال مستعمراتها (الكناري، مليلية،

سبتة).

البداية كانت من جزر الكناري، التي كانت أول محطة في مسار الرحلة بعد الانطلاقة من طرفاية، حيث استقبل الحجاج من قبل الإدارة الفرانكوية في مدينة لاس بالماص، وعن ذلك يقول: "فأنزلنا منزلا حسنا، وأحسن ضيافتنا" (ابن العتيق، 2004، ص 75)، وحظي الوفد الصحراوي المشارك في رحلة الحج بنفس الاستقبال بمدينة اشبيلية أثناء عودتهم من الحج، إذ "تلقى لنا أهلها فرحين بمقدمنا وأنزلونا منزلا حسنا رائقا، وأحسنوا ضيافتنا" (ابن العتيق، 2004، ص269). فالمؤلف تحدث في غير ما مرة عن كرم الإسبان وحسن ضيافتهم وكرمهم تجاه المغاربة وبالضبط وفد الحجاج. وهو نفس الخطاب الذي كانت تروج له الفرانكوية التي تتحدث عن الأخوة والتشابه بين المغاربة والإسبان.

اعتبر الشيخ مربيه ربه أن إسبانيا تتفوق عن باقي الدول الاستعمارية بسبب تعاملها الإيجابي مع سكان مستعمراتها، وهو ما يتمثل في تحملها لكل أنواع المصاريف التي يحتاجها الحجاج في رحلتهم للحج وهو الأمر الذي لا يوجد عند الدول الأخرى(ابن العتيق، 2004، ص 72)، فيجعل من إسبانيا دولة استثنائية في الدول الاستعمارية الأخرى.

نقطة أخرى يثيرها نص الرحلة وهي المتعلقة بالجيش الفرانكوي، من حيث تنظيمه وزيه المميز، وعن ذلك قال: "ووقف أعيان الدولة وضباطها بإزاء الميناء بعساكرهم في زي عجيب وتنظيم غريب" (ابن العتيق، 2004، ص 243)، فلم يخفِ إعجابه بالدولة الإسبانية الجديدة وتنظيمها.

وفي حديثه عن مليلية وسبتة أثناء صعود الحجاج يتحدث عن ميناء المدينتين، فمثلا عن مليلية يقول: "ووقف أعيان الدولة وضباطها بإزاء الميناء"(ابن العتيق، 2004، ص 243)، وهذا على عكس حديثه عن طرابلس التي لم تكن تتوفر على مناء لرسوا السفن، بل نزلوا إليها عبر المراكب الصغيرة (ابن العتيق، 2004، ص 115)، بسبب عدم توفر المدينة على ميناء يسمح بوصول السفن، و الشيء نفس بالنسبة لمدينة جدة، التي لم تكن تتوفر على ميناء هي الأخرى، وهذا ما يستشف من قوله: "ركبنا زورقا إلى الباخرة" (ابن العتيق، 2004، ص 237)، وبهذا فهو يجعل من مدينتي سبتة ومليلة أكثر تقدما وتجهيزا مقارنة مع طرابلس وجدة.

وبالنسبة لمدينة اشبيلية فقد كان وصفها كالتالي: "فدخلنا الجامع الشهير بمسجد ابن عباد، فوجدناه في غاية الحسن والاتساع، والإبداع وإحكام البناء، وإتقان السواري، [...]، وفيه صومعة لا توصف حسنا واختراعا وطولا، ولم تتغير على تطاول العهد ومرور الاعصار، إلى غير ذلك من تلك المأثر الحسنة، كالوادي الكبير الذي حولها، وهو وادٍ في غاية الحسن وصفاء الماء وعذوبته، وبإزائه الرياض الزاهرة وسائر الأغراس والزرع الباهرة، يسرح الطرف في ناضرها بكلتا الضفتين المعتدلتين في ميزان المحاسن اعتدال الكفتين، وتسير فيه البواخر" (ابن العتيق، 2004، ص 270). ولعل أهم ما يمكن ملاحظته هو إعجابه الشديد بمسجد ابن عباد وصومعته لا يمكن وصفها حسنها، وإعجابه كذلك بحدائق اشبيلية.

كانت إسبانيا حاضرة أيضا من خلال زعيمها الجديد الجنرال فرانكو، وخلال خطبة لرئيس الوفد الشيخ مربيه ربه حث الحجاج على شكرا إسبانيا والجنرال فرانكو على تمكينهم من أداء فريضة الحج، وذلك بقوله: "وعليكم أن تشكروا الله على تيسير تهيئكم بركوب هذا المركب الفاخر الذي صنعته الدولة الإسبانيولية وأعدته للركوب الى حج بيت الله الحرام، وأنعمت بركوب الكثير من أعيان المسلمين وعامتهم فيه، محتملة جميع لوازمهم من كراء وزاد وضرائب وما تدعو له الحاجة في طريقهم ذهابا وإيابا، وهذه مزية امتازت بها هذه الدولة من بين الدول الأجنبية" (ابن العتيق، 2004، ص 72).

ألقى المندوب السامي بيكبيدير خطبة أمام وفد الحجاج بتطوان خلال عودتهم من الديار المقدسة، واستحسن هذه الخطبة الـ"مؤذنة باعتناء دولة إسبانيا الجديدة لأمور المسلمين وبشدة التعاضد الواقع بينهم وبين الشعب المغربي ومساعدة رئيس الدولة الأعلى أماني الشعب المغربي" (ابن العتيق، 2004، ص 250)، وإذا كان خطاب بيكبيدير يدخل في إطار الدعاية للفرانكوية، فإن ماء العينين بن العتيق لم يبدِ أي تعليق عن هذا الخطاب، وكيف أن النظام الإسباني الجديد يساعد المغاربة على تحقيق أمانيهم لكن في المقابل يستمر في استعماره واستنزاف خيراتهم، خاصة استنزاف العنصر البشري في إطار الحرب الأهلية الإسبانية، وهو ما يوضح أن بيكبيدير نجح بشكل كبير في شراء سكوت النخبة المغربية عن سياسة الفرانكوية وتجاوزاتها، ويبدوا ذلك بشكل أكثر وضوح من خلال أن الرحالة لم يضمن رحلته أي انتقاد ضد الدولة الاستعمارية (إسبانيا) فغض الطرف عن كل تجاوزات إسبانيا، لكن هذا في الوقت نفسه أمر منطقي، فكيف ينتقد الجهة التي وفرت له كل ما يحتاج للتوجه إلى الحج على نفقتها الخاصة.

ب- صورة إيطاليا في الرحلات الفرانكوية

عرف مسار عودة الحجاج من الديار المقدسة اختلافا ما بين رحلة حج عام 1937 ورحلة عام 1939، فإذا كانت الرحلة الأولى قد مرت عبر الديار الإيطالية بعد محطة ليبيا، فإن الثانية عادت مباشرة إلى المغرب، وهو ما جعل هذا القطر (إيطاليا) حاضر في رحلة أحمد الرهوني، وقدم الكثير من المعطيات حولها، في الوقت الذي يغيب ذلك في الرحلة المعينية.

أعجب الرهوني أثناء توقفه بمدينة نابولي أيما إعجاب، فقال عنها "سرنا في طريق كلها جنانات [البساتين] وغروس ومزارع تشرح الصدور وتفرح القلوب إذ الأيام أيام الربيع والأمطار غزيرة وسواقي الماء والأودية كثيرة (...) وتجلت لنا عناية إيطاليا ورجلها الوحيد باجلى مظاهرها وعلمنا أن الأرض تعمر برجالها وتخرب بخرابهم، إذ أن الدوتشي عمد إلى الأرض الخالية وقسمها بين الزراع وأعطاهم ما يقيمونها به من مال وماشية وبنى لكل واحد دار اً في مزرعته، وصارت الأرض كلها عامرة" (الرهوني، 1941، ص 210). ويظهر إعجابه بهذه الطبيعة، وكذلك بالسياسة التي نهجها موسوليني والتي أدت إلى هذا الوضع الحسن والمفرح.

كما انبهر الرهوني في مدينة نابولي أثناء زيارة حديقة الأسماك، وعبر عن ذلك كالاتي: "ومن جملة ما زرناه بها كهوف مملوءة بماء البحر وفيها كل ما خلق الله من أنواع الحوت تجيئ وتذهب في ذلك الماء وبيننا وبينها زجاجات تمنعها من الخروج، فكان ذلك من أعجب المناظر التي يراها الإنسان إذ يجد نفسه في قاع البحر وهو على ظهر الأرض" (الرهوني، 1941، ص 212). أما في العاصمة روما، فقد أدرك "عظمة الأمة الطليانية ومكانتها من الحضارة القديمة والجديدة" (الرهوني، 1941، ص 211)، بما راءه من مآثر عمرانية تدل على هذه العظمة.

خلاصة

تعد كل من "الرحلة المكية" و"الرحلة المعينية" مصدرين تاريخين

يقدمان معطيات تاريخية غنية عن وضعية شمال إفريقيا خلال ثلاثينيات القرن العشرين، مع اختلاف أهمية تلك المعطيات بينهما، وذلك راجع إلى اختلاف مؤلفي هذين المصدرين، فتكوين أحمد الرهوني انعكس على تدوينه للرحلة، حيث يقدم معطيات تاريخية أكثر غنى وبشكل مضبوط ومفصل مقارنة مع ماء العينين بن العتيق، وذلك راجع إلى كون الرهوني ألف الكثير من الكتب في حقل التاريخ، فكان لذلك انعكاس في تدوين "الرحلة المكية"، حيث أقدم على تسجيل كل مشاهداته بالتفصيل، إلى جانب تقديم معطيات لم يكن شاهداً عليها بل نقلها عن مؤلفين أخرين مع الإحالة إلى ذلك.

وفي المقابل فإن ماء العنين بن العتيق المنتمي للجنوب المغربي، وأحد مريدي زاوية الشيخ ماء العينين، فقد تأثر بوسطه الاجتماعي والثقافي، ويظهر ذلك من خلال الكم الهائل من القصائد الشعرية في الرحلة، هذا إلى جانب البعد الصوفي الروحي الحاضر بها، متأثرا بتكوينه وبيئة نشأته.

إذا كانت الرحلات الحجية الفرانكوية تتوقف بالديار الليبية فإن نظيرتها الفرنسية كانت عكس ذلك، حيث كانت تتوقف بالجزائر وتونس ثم تتوجه مباشرة إلى مصر، ويفسر ذلك بكون ليبيا كانت تحت الاستعمار الإيطالي المعادي لفرنسا خاصة مع وصول موسوليني إلى الحكم، والعكس بالنسبة لإسبانيا الفرانكوية التي كانت حليفة له.

اختلاف مسار الرحلتين جعل ماء العينين بن العتيق لم يتحدث عن إيطاليا على عكس أحمد الرهوني، ونفس الشيء بالنسبة لوصف إسبانيا، فباعتبار أن أحمد الرهوني انتقل مرتين إلى الديار الإسبانية خلال هذه الرحلة: الأولى كانت قبل انطلاق الحجاج وتكليفه من قبل الفرانكوية بترأس وفد الحج، والثانية كانت بعد العودة من أداء مناسك الحج واستقباله من قبل الجنرال فرانكو، هذا الأمر جعله يخصص حيزاً مهماً للحديث عن إسبانيا الفرانكوية أكثر مما تحدث عنه ماء العينين بن العتيق، الذي لم تستقبله السلطات الفرانكوية لا قبل التوجه إلى الحج ولا بعد العودة منه.

تقدم الرحلتان صورة جيدة عن إسبانيا وإيطاليا ومستعمراتها في شمال إفريقيا، باعتبار أن نهضة هذه البلدان ترجع إلى استعمارها من قبل هذه القوى، وهذا على عكس الصورة التي تقدمها عن أقطار المشرق العربي، المفتقرة للبنيات التحية والمؤسسات الثقافية، والأنشطة الاقتصادية، ... وغيرها من السلبيات التي تقدمها عن هذه الأقطار.

1. قائمة المراجع

- الرهوني، أحمد. 1941، **الرحلة المكية (1355-1356 هـ/ 1937م)**، منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية، مطبعة الأحرار، تطوان،.
- ابن العتيق، ماء العينين. 2004، **الرحلة المعينية**. تحقيق محمد الظريف، الطبعة الاولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي.
- الجعيدي، إدريس بن محمد. 2018، **رحلة حاج مغربي زمن الحماية الفرنسية 1930**، تحقيق عز المغرب معنينو، الطبعة الأولى، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار السويدي للنشر، أبوظبي.
- الصبيحي، أحمد. 2016، **الرحلة المغربية المكية**، تقديم وتحقيق ودراسة نزيهة جابري، الطبعة الأولى، منشورات دار الأمان، الرباط.
- الحجوي، محمد بن الحسن. 2010، **رحلة حجازية**، تحقيق عبد المجيد خيالي، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت.